محاضرات مقياس قضايا النقد الأدبي القديم

الأستاذة: فوزية سعيود

المستوى: سنة ثانية ماستر أدب قديم، الفوج:01، السداسي الثالث.

المحاضرة التاسعة: قضية عمود الشعر

من القضايا النقدية الهامة التي برزت في النقد العربي القديم: قضية عمود الشعر التي تكاد تكون نظرية نقدية مكتملة، كما أنها تمثل أساس جماليات الشعر العربي القديم، وقد دارت حول نهج القصيدة، فادعى أنصار القديم أن الشعراء المحدثين خرجوا على هذا النهج، ويريدون بذلك مصطلح "عمود الشعر"، ويعني التقاليد المتوارثة والمبادئ التي سبق بها الشعراء الأولون واقتفى أثرها من جاء بعدهم حتى صارت سنة متبعة، ولقد تردد ذكر هذا المصطلح في كتب النقد، فيقول النقاد عن شاعر إنه لم يفارق عمود الشعر، وعن آخر إنه فارقه.

وقد ارتبط عمود الشعر بقضية الخصومة بين القدماء والمحدثين التي نشبت في العصر العباسي، حول أبي تمام (ت231هـ) و"المتنبي"(ت354هـ) بشكل خاص، فتناولها ثلاثة من كبار النقاد، وهم: "الآمدي"(ت370هـ)، و"الجرجاني"(ت392هـ)، و"المرزوقي"(ت421هـ) وكان لكل منهم تصوُّرٌ للشعر عَكَسَه من خلال حديثه عن هذا المصطلح الذي كان "الآمدي أول من استعمله.

لقد ظهر الصراع حول قضية عمود الشعر في القرن الثالث الهجري وما بعده، وتمثل في الخصومة النقدية حول الشاعرين: "أبي تمام" و"البُحتري"(ت284هـ) وتعصُّب فريقٍ من النقاد "لأبي تمام" وفريقٍ آخر "للبحتري".

لقد نقل "الآمدي" هذا الصراع في كتابه "الموازنة بين الطائيين" في معرض موازنته بين الشاعرين، وفيه يشير "الآمدي" إلى أن:« البحتري أعرابيُّ الشعر، مطبوعٌ، وعلى مذهب الأوائل، وما فارق عمود الشعر المعروف، وكان يتجنب التعقيد ومستكرهَ الألفاظ ووحشيَّ الكلام؛ فهو بأن يقاس بأشجع السلمي ومنصور، وأبي يعقوب المكفوف وأمثالهم من

المطبوعين أولى، ولأن أبا تمام شديد التكلف، صاحب صنعة، ومستكره الألفاظ والمعاني، وشعره لا يشبه أشعار الأوائل، ولا على طريقتهم؛ لما فيه من الاستعارات البعيدة، والنعاني المولدة، فهو بأن يكونَ في حيّز مسلم بن الوليد ومن حذا حذوه أحق وأشبه».

نقل "الآمدي نصوصا كثيرة لتلك المفاضلة، والملاحظ على "الآمدي" أنه تناول قضية "عمود الشعر" ولكنه لم يحددها بدقة وتفصيل، وإنما اكتفى بأن أشار إلى أن "البحتري" قد التزم عمود الشعر، وأن "أبا تمام"قد فارق عمود الشعر وطريقة العرب في النظم والقريض.

وتلقف" القاضي الجرجاني" هذه القضية متمثلا آراء "الآمدي"، فقد تناولها بحذق وذكاء، ووضعها في صورة متكاملة، حيث تعرّض لبعض خصائص الشعر العربي ولكثير من الأحكام النقدية، ومن ذلك إشارته إلى "عمود الشعر ونظام القريض" في قوله:« وكانت العرب إنما تفاضل بين الشعراء في الجودة والحُسن بشرف المعنى وصحته، وجزالة اللفظ واستقامته، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب، وشبه فقارب، وبده فأغزر، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته، ولم تكن تعبأ بالتجنيس والمطابقة، ولا تحفل بالإبداع والاستعارة إذا حصل لها عمود الشعر، ونظام القريض».

وهذه عناصر عمود الشعر عند "الجرجاني" ومقوماته الأساسية التي لا يقوم الشعر القديم إلا بها، وهي:

1 _ شرف المعنى وصحته.

2 _ جزالة اللفظ واستقامته.

3 _ الإصابة في الوصف.

4 _ المقاربة في التشبيه.

5 _ الغزارة في البديهة.

6 _ كثرة الأمثال السائرة والأبيات الشاردة.

وعاد "المرزوقي"(ت421هـ) إلى التقاليد التي يبنى منها عمود الشعر متكئا في ذلك على العناصر التي ذكرها "الآمدي" ووضحها "الجرجاني" من قبل فيقول في مقدمة كتابه "شرح ديوان الحماسة":« فالواجب أن يتبيّن ما هو عمود الشعر عند العرب؟ ليتميّز تليد الصنعة من الطريف، وقديم نظام القريض من الحديث، وليُعرف مواطئ أقدام المختارين فيما اختاروه، ومراسم أقدام المزيّفين على ما زيّفوه، ويُعلم أيضا فرق ما بين المصنوع والمطبوع وفضيلة الأتيِّ السَّمْحِ على الأبيِّ الصعبِ».

ويذكر سبعة معايير هي عمود الشعر وسماها عيار، وهي:

1 ـ عيار المعنى: يُعرض المعنى على العقل الصحيح والفهم الثاقب، والعقل هو الحَكَمُ الذي يفصل في صحة المعنى وخطأه، فيعرضه على واقع الحياة وعلى معارف العلم حينا آخر.

2 ـ عيار اللفظ: أساس الذوق المرهف الذي هذبته الرواية، وصقلته الثقافة فميز بين السلس الثقيل، والمألوف والمهجور، والدقيق في آداء المعنى والبعيد.

3 ـ عيار الإصابة في الوصف: وقوامه ملكات الشاعر من ذكاء وحسن تمييز، فبهما يعرف ما هو أشدّ ارتباطا بالشيء ليصير من صفاته.

4 ـ عيار المقاربة في التشبيه: ويقوم على الفطنة وحسن التقدير، فأحسن هذا التشبيه ما أوقع بين شيئين يشتركان في الصفات أكثر من انفرادهما ليبين وجهه بلا كلفة.

5 ـ عيار التحام أجزاء النظم والتئامه على تخيّر من لذيذ الوزن: وأساسه الطبع واللسان، فما لم يستثقله الذوق من الصيغ ولم بتحبّس اللسان فيها فاستمر فيه واستسهله بلا ملال ولا كلال. وتخير لذيذ الوزن فيطرب الذوق بحسن إيقاعه واعتدال نظمه، بل لابأس من اللجوء إلى الغناء لمعرفة مدى جمال إيقاع الشعر.

6 ـ عيار الاستعارة: وتصدر عن الذهن والفطنة، وذلك بتقريب التشبيه حتى يتناسب المشبه والمشبه به، ثم يكتفي بالمستعار لأنه هو المنقول.

7 _ عيار مشاكلة اللفظ للمعنى وشدة اقتضائهما للقافية: وينشأ عن طول الدربة ودوام المدارسة، فيكون اللفظ مقسوما على مقادير المعاني، وأما القافية فيجب أن تكون مكملة للمعنى فلا يستوفى إلا بها، وإلا كانت قلقة في موضعها فتدفع للاستغناء عنها.

فهذه المعايير هي عمود الشعر عند العرب، فمن لزمها بحقها وبنى شعره عليها فهو عندهم المُفلقُ المعظَّم والمُحسن المقدَّم، ومن لم يجمعها كلُّها فبقدر سُهمته منها يكون نصيبه من التقدم والإحسان.